المكر فى القرآن الكريم

بقلم

د. يحيى محمد يحيى

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

كلمة المكر : كلمة شائعة على الألسنة ، لاسيما فى أوقات يشعر فيها المرء بأن المخاطب يدبر له أمراً لا يعرفه ، أو يريد أن يحيط مخاطبه بأنه غير آمن لما يدبره له شخص ما .

ومن لحظتها . يدور الرعب والفزع فى نفس المستشعر لمعنى هذه الكلمة ، ويحاول جاهداً أن يؤمن نفسه ويدفع عنها ما يحتمل وقوعه ، وبقدر طاقته .

وكم من علاقات وصداقات إنتهت ، عندما يتيقن أحد الطرفين المكر فى صاحبه ، وكم من بيوت خربت ودمرت مما صنع أصحابها من مكر ولؤم وخبث بالآخرين ، وكم من ماكرين إفتتنوا بحيلهم ولطيف خبثهم حتى ظنوا أنهم قادرون على إيقاف فضل الله على عباده ، أو التقليل منه ، فكان مآلهم الضياع والفناء .

ولعله من الجميل والمرغوب فيه أن نفتتح بحثا قرآنياً ، كهذا بدوران معنى هذه الكلمة وتحديد مساراتها فى معاجم اللغة وتعبيرات الخاص من العرب ، حتى يمكن الوقوف على بلاغة جريانها وبديع إسناداتها فى القرآن الكريم .

إن الناظر فى معاجم اللغة يلحظ دوران هذه الكلمة حول معنى الإحتيال

والخدعة بحيث يجرى ذلك فى الخفاء وتحت ستار وطلاء من الحسن المشوش على المكور به بغية أن ينشغل به حتى يسرى الضرر والإفساد فى جنبات هذا المكور به إلى أن يتيقظ على الهلاك والدمار ، وعندها لا يستطيع دفعاً أو لا يقدر على الرد والمنع .

فهم يقولون : « المكر الإحتيال فى خفية » [١] ، ويقولون : (المكر الخديعة والإحتيال » [٢] . وهذا هو التدبير الأذى فى الخفاء .

ويقولون : (إن المكر قد يطلق على المغرة ، بمعنى الطين الأحمر الذى يصبغ به الشىء ، فيقال الأسد كأنه مكر بالمكر أى ، طلى بالمغرة) [٣] وذلك إثر افتراسه لصيده وتلطخه بدم هذا الصيد وهذا هو الطلاء الذى أشرنا إليه ومحاولة التشويش والتمويه على المكور به . ويقولون كذلك (والمكر : سقى الأرض ، يقال امكروا الأرض فإنها صلبة ثم إحرثوها ، يريد اسقوها [٤] وفى ذلك إمعان فى توصيل المكر للمكور به وجريانه فى نفسه ومشاعره واختلاطه بظاهره وباطنه .

ويقولون : والمكرة : الساق الغليظة الحسناء ، والمكر ، حسن خدالة الساقين ، وامرأة ممكورة أى مرتوبة الساق ، خدلة ، شبهت بالمكر من النبات » [٥] .

وفى ذلك تلميح لمعنى التزيين والتحسين وإدخال البهجة المزيفة على المرء المقصود بالمكر وإنزال الأذى

(١ ، ٢ ، ٣) راجع فى ذلك مادة « مكر » فى اللسان لابن منظور ونفس المادة فى القاموس للفيروزابادى جـ ٢ ص ١٤١ ط الحلبى سنة ١٩٥٢ .

(٤ ، ٥) المرجعين السابقين .

ويقولون كذلك : (والمكرة الرطبة الفاسدة ، وهي كذلك الرطبة التي أرطبت كلها وهي لا تنهضم ، وهي كذلك اليسرة المرطبة ولا حلاوة لها)[1]

ومن هذا يتجلى أن المكر وإن حلا شكله وحسن منظره للنفوس ، لا يلبث ان يتوقف لمرارة أصله وعسر هضمه على العقول السليمة والأرواح السوية التي لا تأنس إلا بكل سوى ولا تندمج إلا مع كل خلي من الآثام والأدران .

والآن ، وبعد استعراض معانيها في اللغة ، هل أراد القرآن الكريم منها هذه المقاصد وتلك الألاعيب البشرية المسفة ؟

لا شك ، أن المتأمل لآيات القرآن وسياقاتها التي تكتنفها ، يلحظ أن الكلمة تنبعث منها تلك المعاني وأن نفوس الماكرين تضطرم بهذه الأوزار وتلك الأدران التي يبغون إيقاعها بالممكور بهم ولكن ، هل ذلك جار على جميعها ، حتى ما أسند فيه المكر الى الله تعالى ؟

نبادر فنقول ، من حيث الغاية من المكر ، فهي هي بل من جناب الله أقوى وأعنى . أما من حيث المراد بالمكر ، فهو في جنابه ، تعالى : عقاب واستدراج ومجازاة ، وذلك كله بالظالمين لأنفسهم والبادئين بالمكر لإخوانهم أو رسلهم أو المانعين ـ على زعمهم ـ لفضل الله وبره بعباده .

ولا شك ـ أن إنزال العقاب بالعصاة ، مخيب لآمالهم وإفساد لمخططاتهم كما أن إيقاعه بهم دون شعور منهم أو تحمس له أو إنزاله من جهة ما يأمنون

---

(١) المرجعين السابقين .

هو الخفاء بعينه ، وإن تغير بتغير الدافع له والغاية منه . فدافعه عند الناس ، وبينهم أحقاد وضغائن ومخاصمات وغايته عندهم ، إذلال وتعنيف واستهزاء .

أما سببه عند الله ، فهو البلوى الطبيعى حتى يريح عباده من هذا المارد البشرى .

وغايته : إشاعة الأمن ونشر العدل وذيوع المراقبة وشمول مظلتها حتى يستزيد الطائع ويتراجع العاصى .

وبعد هذه التطوافة اللغوية لهذه الكلمة نعود إلى القرآن الكريم لنتعرف على ورودها فيه ، وتحركها فى مقاماتها .

فكلمة « المكر » ومشتقاتها وردت فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة وذلك فى ثلاث وعشرين آية (١) .

وهذا الحشد القرآنى لهذه الكلمة يلحظ المتأمل فيه أمرين جديرين بالدراسة والفهم ، ومعتمداً فى ذلك على دور الكلمة فى مقامها وبلاغة أدائها ومرعى مرادها فى سياقها . وهذا كله أمر يهم الباحث البلاغى ويفتح له أبواباً من الدروس القرآنية العالية فى بلاغتها وبديع تأثيرها وتأزها فى نفس المتلقى ، سواء كان مكوراً به أو ماكراً ، أو خالياً من الحالين ، لينتظر الخير فى الأولى ، والعقاب فى الثانية ، ويحمد الله فى الثالثة .

وهذان الأمران هما :

---

(١) راجع ذلك وتأمله فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للمرحوم محمد فؤاد عبد الباقى . مادة « مكر » .

الأولى : ما يلفت النظر فى بعض من الآيات ، وهى منفردة غير مجموعة مع غيرها من أخواتها الثانى : ما يمكن تحديده وتعيينه من جهات تتحرك فيها الايات جميعها ، بعد تجميع لكل متجانس ومتقارب فى الجهة التى يدور فيها .

وقد لوحظ أن ما يلفت النظر للبليغ فى عرض الايات ، منفردة ، بعض من الإسنادات لكلمة المكر كأن تسند إلى الله تعالى . وبعض آخر من الإضافات لهذه الكلمة كأن تضاف إلى الليل أو إلى وصف من الأوصاف . وبعض ثالث وأخير هو وصف تلك الكلمة بأوصاف مشخصة وباعثة على التأمل الحثيث لمرمى تلك الكلمة كأن توصف بالكبار أو بالسيء .

أما عن تحديد جهات هذه الكلمة التى تتحرك فيها على مدى الثلاث والأربعين مرة وفى الثلاث والعشرين آية فهى جهات ثلاث :

الأولى : جهة يتوجه فيها المكر من الناس لبعضهم وذلك فى ست آيات .
الثانية : « « « « « لرسلهم وذلك فى خمس عشرة آية .
الثالثة : « « « « « لآيات ونعم ربهم وذلك فى آيتين .

ولما كان العرض البلاغى للآيات جميعها مع تحديد مسار كل مجموعة وتبيان اتجاهها وقيمته ودور التعبير القرآنى فى ذلك ، هو المقصود الأول والأهم ، لذلك سنجعل التالى للملحظ الأول فى الايات ، وهو ما يتعلق ببعض الإسنادات والإضافات والأوصاف لتلك الكلمة .

والآن إلى الملحظ الأول فى الايات : —

(أ) الإسنادات التى تتعلق بالله تعالى ، وقد خرجت على صور ثلاث هى :—

إسناد المكر لله تعالى ـ إلحاق أفضلية المكر وأحسنه إليه تعالى ـ قصر وتخصيص المكر كله بالله تعالى وله وحده ـ سبحانه .

(١) ونبدأ بالصورة الأولى التى يسند فيها المكر إلى الله تعالى ومن آياتها : ـ

قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله) . (٥٤) من آل عمران . وقوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله) . (٣٠) من الأنفال . وقوله تعالى : (أفأمنوا مكر الله) . (٩٩) من الأعراف . وقوله تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً) (٥٠) من النمل .

والبليغ ، حينما ينظر إلى هذه الايات ، يستوقفه إسناد المكر إلى الله تعالى ويجره ذلك إلى تتبع مقولات المفسرين حتى يستجمع الفكرة ويبلور النكتة البلاغية التى هى وراء ذلك الإسناد .

ويمكن عرض خلاصات مقولاتهم البليغة فى هذا الإسناد على النحو التالى : ـ

أولا : المكر من حيث أصل معناه لا يمكن إسناده إلى الله إلا بطريق المشاكله وهذه نقطة تشعر بأن القوم لم يستسيغوا إسناد الحيلة وإضافة المكر المشابه لمكر بنى البشر ، لله تعالى . فالله منزه عن ذلك وهو القاهر فوق عباده .

والمشاكلة التى حملوا عليها إيراد هذا الإسناد تخرج المعنى المراد على غير طبيعة اللفظ الذى ورد به ، فهى كما يقول البلاغيون : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، وقد مثلوا بهذه الاية ، ومكروا ومكر الله ، بمعنى

مكروا ودبر الله عقابهم فأتى بلفظة « مكر » التي معناها التدبير من الله تعالى ، لوقوعها في صحبة مكر القوم .

وجمال هذا التعبير وبلاغته تنبع من محاولة المقارنة بين صنيع القوم وصنيع ربهم وبين أثر تدبيرهم واحتيالهم وأثر بطش الله وانتقامه ، وعند ذلك ينكشف معنى الاستهزاء والتهكم بما يصنع القوم تجاه صنع الله وتدبيره المحكم .

وكل ذلك الإحساس ومحاولة استخراج المقارنة والموازنة بين أثر فعلين وعاقبة أمرين ، ما وقع إلا بمقابلة مكر بمكر وازدواج ومزاوجة أحدهما بالآخر وهذا هو معنى قولهم إن الكلام على سبيل المشاكلة أو المقابلة أو المزاوجة أو الازدواج فكلها معان واحدة متلاقية في أمر واحد هو عرض الشيئين في كلام واحد وإظهار التعبيرين واللفظين بصيغة واحدة حتى يتسنى الحكم عليهما والمقارنة بين أثريهما وعاقبتهما .

فما قالوه ويدعم ما ذكرناه ما قيل حول آية (٥٤) من آل عمران « ويمكر الله » .

« المكر من حيث الأصل معناه لا يمكن إسناده إلى الله تعالى إلا بطريق المشاكلة [١] » ويضيفون « والسبب أنه منزه عن ذلك فالكلام على المقابلة والازدواج [٢] » .

---

(١) راجع ما قاله أبو السعود ص ٤٢/٤٣ ج ٢ .

وقد عارض بعضهم بأن المشاكلة فيما أسند المكر فيه إلى الله تعالى بعد إسناده لغيره من الناس ، ولكن ما القول فيما أسند فيه المكر إلى الله ابتداء ؟ وقد أجيب بأن ذلك يكون من قبيل المشاكلة التقديرية . ولكن طبيعة السياقات تأبى ذلك وتفتح الباب أمام تأويلات أخرى .

(٢) راجع ما قاله الشهاب في نفس الآية ص ٣٠ ج ٣ .

ويقولون كذلك « يؤول المكر في جنابه تعالى لأنه لا يليق به أن يقال في حقه إنه يحتال في جلب المضرة إلى الغير [١] » .

ويعللون لتسمية العقوبة بالمكر ويجعلونها في مقابل مكر القوم فيقولون « والعقوبة سميت بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً [٢] » ، ويضيفون « وسميت بالمكر لأنها ناشئة عنه ، وذلك على سبيل المقابلة كقوله تعالى : الله يستهزىء بهم [٣] » .

ومما ردده كثيراً صاحب الظلال عند هذا الإسناد قوله « والشاكلة هنا في اللفظ ، هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله . . والمكر التدبير . . وذلك ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله ، فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟ [٤] » .

ثم تختم هذه الناحية بمقولة الشهاب وهو يعلق على ما قاله البيضاوي في الآية (٣٠) من الأنفال فيقول « والمزاوجة بمعنى المشاكلة ، كالازدواج » . وقد صرحوا في علم البديع وعند الكلام على المزاوجة بأنها بمعنى المقارنة وبأن ترتيب المعنى على أحد الشيئين إذا توقف على الآخر كان ذلك ازدواجاً كترتب الجزاء على الشرط وارتباط الشرط بالجزاء .

ثانياً : أن إسناد المكر إلى الله تعالى هو من قبل المجاز سواء كان مجازاً علاقية التشبيه أو غير التشبيه ، فهو على كل حال ليس حقيقة .

---

(١) راجع ما قاله الشهاب في آية (٣٠) من الأنفال ص ٢٦٩/٢٧٠ ج ٤ .
(٢) راجع ما قاله أبو السعود في آية (٢١) من يونس ص ١٣٢ ج ٤ .
(٣) راجع ما قاله أبو حيان في آية (٤٢) من الرعد ص ٣٩٥ (مجلد)
(٤) الظلال ص ٤٠٢ المجلد الأول .

وساغة أن يكون على سبيل الاستعارة (مجازاً علاقته التشبيه) يكون استعارة تبعية لأنه في الفعل ، وعليه يكون « ويمكر الله » أي يرد مكرهم عليهم فيكون المجاز منصباً على اللفظة المفردة « يمكر » التي معناها يرد ويدفع ويعاقب . ويمكن أن يجرى المجاز على الصورة الكلية والهيئة المنتزعة من متعدد ، وهنا يطلق على المجاز بأنه استعارة تمثيلية إن كان قائماً على التشبيه بين الهيئتين : المذكورة والمتبوعة .

فيكون قوله تعالى « ويمكر الله » أي يعاملهم معاملة تشبه معاملة الماكرين في التدبير والأخذ من حيث لا يشعرون ، ويمكن أن يكون قوله تعالى « ويمكر الله » من قبيل المجاز القائم على غير المشابهة أي المجاز المرسل الذى علاقته السببية فيكون « ويمكر الله » أي يجازيهم على مكرهم فالمكر سبب المجازاة والارتباط والعلاقة قائمة بين السبب والمسبب لا تنفك ، لكنها هنا ليست علاقة المشابهة (١) .

وكل هذه التأويلات تدور حول قضية واحدة هى التحرج من إسناد المكر إلى الله تعالى حتى لا يشتبه صنيعه بصنيع البشر من خلقه ، وتظل أفعاله مستقلة بجلالها وزهوها وقدرها الذى لا يدانى ولا يطاول .

وهذا أمر محمود لأهل اللغة وأرباب البلاغة .

ثالثاً : ألا يمكن أن يجرى الإسناد على الحقيقة ؟ ودون تحرج ! إن المتأمل لمقولة الزمخشرى فى الآية (٣٠) من الأنفال ليأخذ منها منطلقاً للقول بأن إسناد المكر إلى الله على حقيقته ودون ما تحرج ، فالزمخشرى يقول « يمكر الله يخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (٢) » .

---

(١) راجع فى ما ذكره المفسرون حول آية (٣٠) من الأنفال .
أبو السعود ص ١٨ ، ١٩ ج ٤ والبيضاوى والشهاب عليه ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ج ٤ .
(٢) الكشاف ص ١٥٤ ، ١٥٥ ج ٢ .

ومن كلمة « يخفى » يقترب الإسناد من الحقيقة كثيراً ، إذ هو روح المعنى اللغوى لكلمة « يمكرون » ومن كلمة « بغتة » يقترب الإسناد من طابع الأفعال الإلهية ومباغتتها لأهل السوء وتأبيها على الناس : توقيتاً وقدراً وأثراً .

وهذه عبقرية العلامة الزمخشرى الذى يستطيع بتفسيره هذا السهل فى سيولة التعبير وانبلاج المعنى مع صعوبة وتأبى إخراجه على غير الزمخشرى . ولعل هذا هو الذى انكأ عليه العلامة الشهاب حينما أورده كمقولة حول آية (٥٤) من آل عمران حيث قال « وقيل إنه إيصال المكروه إلى الغير على وجه خفى ، وأنه يجوز صدوره عنه تعالى ، حقيقة ويكون بمعنى التدبير المحكم »(١) .

(٢) أما الصورة الثانية والتى يلحق فيها أفضلية المكر وأحسنه إلى الله تعالى فتشير إليها آيات ثلاث هى : ٥٤ من آل عمران ، ٣٠ من الأنفال ، ٢١ من يونس ، والجملة القرآنية المقصودة بالتأمل والدرس هى قوله تعالى « والله خير الماكرين » من آيتى آل عمران والأنفال ، وقوله تعالى « قل الله أسرع مكراً » من يونس ، والوقفة البلاغية أمام إسناد وإضافة أفضلية المكر إلى الله تعالى فى هذه الآيات ، وهل معنى ذلك أن الله تعالى يشترك معه غيره فى المكر مع زيادة مكر الله وعلو جنابه عن مكر المشترك معه ؟ وإلا فكيف خرجنا هذا الأسلوب النحوى البلاغى الرفيع ؟

نبادر فنقول ، إن ما قرره البلاغيون فى إسناد المكر إلى الله تعالى ، فى الصورة السابقة ، هو بعينه ما انتكىء عليه فى فهم الصورة الحالية ، من إسناد ما يليق بجلال الله وعظمته وقدرته وعدم مشابهته للحوادث فليس كمثله شىء وهو القاهر فوق عباده .

---

(١) راجع حاشية الشهاب على البيضاوى ص ٣٠ ج ٣ .

فالمفسرون لا يخفى عليهم أن الخيريه فى معنى تقتضى زيادته وهو المكر هنا(١)، ولكن الخيرية فيه من حيث أن الله تعالى إذا دبر أحكم أمراً بعبد من عباده كان مكره أقوى وكيده أنفذ وكان - جل شأنه - أقدر على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب(٢)، مع استقلالية فى المكر ودوره ودافعه ومآله. فمكره تعالى أحسن وأوقع فى محله لبعده عن الظلم بالمكور به(٣)، بل يجب له - إن أريد به الخير - التوبة والإنابة وحسن الرجوع إلى ربه.

ولاحظوا كذلك فى إضافة أفعل التفضيل أنها إضافة لا تعنى مشاركة الغير فى أمر مع زيادته لله تعالى، ولكنهم قالوا إنها إضافة اختصاص(٤) كما فى قولهم: الأشج والناقص أعدلا بنى مروان، فهم لم يقصدوا مشاركتهما مع غيرهما بل خلع هذه الصفة بتمامها عليهما خاصة ودون مشاركة.

وهذا كلام جيد إذا ما لوحظ فيه أن مكر الله وتدبيره ومجازاته لا تقع إلا تقويماً للأمور وإحقاقاً للحق واستجلاباً للإستقرار والأمن وهذا ما لا يشاركه فيه غيره.

ولاحظوا كذلك أن الأفضلية هنا، يمكن أن تكون من قبيل قولهم: الصيف أحر من الشتاء، فيكون المعنى أن مكر الله تعالى فى خيريته وغايته أبلغ وأحسن من مكر الغير فى شريته وإلحاق الأذى بغيره(٥).

---

(١) راجع ما قاله الشهاب ص ٣٠ ج ٣ حول آية آل عمران (٥٤).

(٢) راجع ما قاله الزمخشرى ص ٤٣٢ ج ١ وكذا أبو السعود ص ٤٢ / ج ٣ فى نفس الآية.

(٣) راجع ما قاله الشهاب ص ٣٠ ج ٣ حول نفس الآية.

(٤)، (٥) راجع ما قاله الشهاب ص ٢٦٩ / ٢٧٠ ج ٤ حول الآية (٣٠) من الأنفال.

وهذا ، كذلك ، منحى جميل بالتعبير القرآنى فلا مشابهة البتة بين مكر الله فى خبريته ، ومكر العباد فى إلحاق الضرر ببعضهم والتعبير العربى ، هذا ، يدعم ذلك المعنى وينصره ويحيط الجلال والهيبة والاستقلالية بكل ما يسند إليه تعالى من مكر وأفضلية مكر .

أما ما ذكروه حول كونه تعالى ، أسرع مكراً ، فهو بمعنى أنه يدبر العقاب ويوقعه بالماكر قبل أن يفعل شفيعته ويدفع حق ربه تعالى[1].

وفى ذلك معنى سبق عقابه وسرعته وإنزاله بالماكرين قبل وقوع جريرتهم فالأسرعية هنا أسرعية عقاب وقهر وسطوة لا مشاركة فيها لأحد ولا تشابه بينها وبين ما يصنعه أعداء الله الماكرون بآلائه وعباده .

(٣) أما الصورة الثالثة وهى التى ترد على أسلوب القصر والتخصيص على أن المكر كله لله تعالى ، والآيتان اللتان يرد فيهما هذا الأسلوب هما :-

٤٢ من الرعد ، ٤٦ من ابراهيم وهما قوله تعالى « وقد مكر الذين من قبلهم ، فلله المكر جميعاً » ، قوله تعالى : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم » .

فالصيغتان هما : فلله المكر جميعاً ، وعند الله مكرهم .

والمعنى : فلله ـ أى لا غيره ، المكر جميعاً . ومعنى الثانية : وعند الله ـ أى لا غيره ، مكرهم . وصيرورة المكر كله لله : وعنديته تعالى تحيط بمكر

---

(١) راجع ما قاله الزمخشرى فى آية (٢١) من يونس ص ٢٣١ ج ٢ وأبو السعود ص ١٢٣ ج ٤ .

الماكرين ، هذا من شأنه أن يثبت له ذلك تعالى وينتفى عن كل ما عداه أن يستطيع مكراً بحق ، أو إحاطة بمكر .

وبالنظر فى آية الرعد (٤٢) نجد أنها أضافت المكر كله لله تعالى وهذا له دلالته الموحية بأن أى مكر يصنعه بنو البشر لا يعتد به ولا تأثير فيه أمام مكر الله الذى يطوى كل مكر ويسخر من كل حيلة . وهذه الدلالة مستوحاة من ذكر مكره تعالى مع ذكر مكر القوم لجعل تعالى مكرهم كلا مكر إذ أضاف المكر كله له تعالى(١).

وفى صياغة الكلمة وورودها احتمالان ، إضافة إلى محذوف ، وعدم إضافة . وكونها غير مضافة أبلغ وأقوى . إذ قوله تعالى , فلله المكر جميعاً ، يعنى ، كما قال المفسرون : أى هو مخلوق له مكر الماكرين فلا يضر إلا بإذنه وفى ذلك تسلية للنبي الكريم وأمته ليكون الخوف من الله وحده ، والرجاء فيه وحده ، وبذا تنقطع الأسباب والوسائل ويرتبط الخلق بربهم مباشرة يخافون إن عصوا ويرجون إن أطاعوا أما عند إضافتها لمحذوف تقديره ، فعند الله جزاء مكرهم يتركز المعنى فى الجزاء ويصرف الفكر ويحول النظر بعيداً عن الفعل نفسه وآثاره فى الممكور به ويكتفى بجزائه للماكر وفى ذلك تعلق بالله تعالى كمجاز ومعاقب مع أنه تعالى هو كل شيء خلق المكر وخلق له الماكر ويسر له أسبابه ويريد نفاذه أو إبطاله . فالأمر من مبدئه لمنتهاه له جل شأنه . لذا كانت الآية على غير إضافة أبلغ وأشمل وأوثق فى جلال الله وهيمنته بدءاً ومنتهى ، وخوفاً ورجاء(٢)

---

(١) راجع ما قاله أبو حيان فى الآية ص ٤٠٠ المجلد الخامس .

(٢) راجع ما قيل فى الآية فى كل من القرطبي ص٣٢٥ ج ٩ والرازى ص ٦٨ ج ١٩ .

ويمكن - كذلك - إلتقاط الأبلغية فى كون « أل » فى كلمة (المكر) للجنس وليست للعهد حتى تشمل كل مكر الماكرين شمول علم وإحاطة وجزاء وعقاب . أما عند كونها للعهد ، فهى وإن كانت لائقة بمقام الآية إذ هى موحية آنذاك بأن الله كاشف مكر القوم وحيلهم وأنها باطلة وفارغة من كل أثر ، لكنها تظل دائرة فى رحاب الآية فقط ولا تتجاوزها إلى كل الماكرين وإلى كل مكر وقع أو سيقع[1] .

أما آية ابراهيم (٤٦) (وعند الله مكرهم) فهى موحية بأن عندية تعالى محيطة بالمكر والماكرين إحاطة علم ومجازاة .

وأبلغية الآية تحدث عند عدم الإضافة كما سبق فى آية الرعد . إذ هى عند الإضافة تكون (عند الله جزاء مكرهم) وعند عدمها تكون (وعند الله مكرهم) بمعنى هو عالم بذلك فيجازيهم أو المعنى : مكتوب عنده تعالى مكرهم ومعلوم له سبحانه وذلك كناية عن مجازاته تعالى لهم ، وهذا أبلغ لعموميته وشموله[2] .

والكناية بطبيعتها تحتاج إلى إعمال فكر وترتب ملزوم على لازم فيحجم أهل المكر ويرتدعون ويتجهون إلى ربهم العالم والمجازى .

وبعد أن انتهت الإسنادات إلى لفظ الجلالة الأعظم ما هى ذى الصورة الرابعة والخامسة فى هذا الصدد :

(٤) أما الصورة الرابعة فهى ما أضيف فيها المكر إلى غير ما هو له وآياتها هما :

---

(١) راجع ما قيل فى الآية فى تفسير الآلوسى ص ١٧٤ ج ١٣

(٢) « « « « القرطبى ص ٣٨١ ج ٩ والآلوسى ص ٢٥١ ج ١٣

قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) ٣٣ من سبأ ، وقوله تعالى (استكبارا فى الأرض ومكر السيء) ٤٣ من فاطر .

وملاحظ فيهما أنه أسند المكر إلى الليل والنهار ثم إلى السيء من الفعل وهذه إسنادات لا يستقبلها العقل إلا على باب من التأويل والتجوز .

والآيتان هما من قبيل الإسناد المجازى فقد أسند المصدر (المكر) إلى ملابس له وليس إلى فاعله الحقيق أو مفعوله الحقيق وذلك لنكتة بلاغية أريدت من هذا الإسناد

فالآية الأولى : بل مكر الليل والنهار . حكاية لما سيقوله الضعفاء المستكبرين الذين دخلوا معا النار فى الآخرة ، وذلك عندما يقول المستكبرون للمستضعفين : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . فيرد المستضعفون — الذين صدوا عن الإيمان واحتيل عليهم ووجهوا بأصناف وألوان من الحيل والصنائع المموهة ليحجبوا عن دين الله — قائلين : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا .

فقد أسند المكر إلى الليل والنهار من قبيل الإسناد المجازى فالليل والنهار ظرفان ملابسان ومخالطان بل وواقع فيهما الحدث والفعل ومكر المستكبرين فجاز إسناد المكر إليهما .

وفى ذلك إشاعة وإعلام بأن المستكبرين ما كفوا عن صد الضعفاء وما تركوهم ساعة من نهار أو لحظة من ليل ، وفى إضافته إليهما إجراء واقع كما لو كانا مفعولين أو فاعلين لذات المكر كناية عن لف المستضعفين وشمولهم بحيل القوم وألاعيبهم المانعة عن الهدى والإيمان ، وأبلغية الإسناد واضحة عما أريد منها (١) .

---

(١) راجع ما قيل فى الآية فى الكشاف ص ٢٩١ ج٣ وأبو السعود ص ١٣٤ ج٧ والشهاب ص ٢٠٥ ج ٧

أما آية فاطر (٤٣) فقد أسند المكر إلى ملابس له وهو الصفة إشعاراً بأن القوم ما احتالوا وما أخفوا إلا السيء من القصد والقبيح من الفعل وهذا أبلغ فى ذمهم مما لو قيل ومكروا المكر السيء وإن كان ما بعده يفسره لكن جريانه على تلك الحالة أبلغ وأدق فأصل هذا الإسناد : وإن مكروا السيء أى المكر السيء ثم صار ومكراً السيء ثم ومكر السيء تخفيفاً وتسهيلا بدليل ما بعده: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[1] .

(٥) والصورة الخامسة والأخيرة هى التى تحكى ورود الصفات على مكر الكفرة الفسقة وأنهم ما تركوا ذرة من شر وإضرار إلا واكتنفها مكرهم ، وكذلك ماتركوا طريقا من طرق التحريش والكيد لأهل الله إلا وسلكوه .

والآيتان الحاكيتان لذلك هما :

الآية ، ١٠ . من فاطر (والذين يمكرون السيئات) والآية « ٢٢ » من نوح (ومكروا مكرا كبارا) .

وآية فاطر تلفت النظر فى جريان الفعل « يمكرون » على مابعده «السيئات» دون واسطة حرف جر مع أن الفعل لا يتعدى بنفسه فلا يقال مكر فلان عمله وكان ذلك لنكتة بلاغية مؤداها أن احتيال القوم ومكرهم برسول الله ﷺ كان احتيالا وإخفاء وإضراراً يقطر سوءاً ويرشح قبحاً وخسة ونذالة كيف لا وهو داعيهم إلى الخير وهاديهم إلى الشرف والسؤدد الحقيقى فجريان الفعل على السيئات دون حرف جر ودون جريانه على معموله الأصلى وهو :

---

(١) راجع ما قيل فى الآية فى الكشاف ص ٣١٢ ج ٣ وأبو السعود ص ١٥٦ ج ٧ والشهاب ص ٢٣١ ج ٧

« المذكورات أو أصناف » إنما كان كشف وتصويراً لنوعية هذا المكر مع هذا الرسول الكريم لذا يقول الزمخشرى « مكر فعل غير متعد ، لا يقال مكر فلان عمله . ونصب السيئات على أنها صفة لمصدر أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف المكر السيئات . وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا فى دار الندوة وتداوروا الرأى فى إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ﷺ »[1] .

أما آية نوح : « ومكروا مكراً كباراً » ، فهى من نفس القوم وبنفس الجرعة من الخساسة والدناءة فقد وصف مكرهم بسيدنا نوح وتحريشهم عليه واحتيالهم فى صد الناس عنه وفى أذيته وقومه ، ووصف بأنه فوق الكبير وما هو أكبر وأعتى من الكبير ، فقد وصف بالكبار ، كناية عن عتوه وشدته وخطورة أذاه .

يقول الزمخشرى :

« والماكرون هم الرؤساء ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه ، ويضيف « كباراً - قرئ بالتخفيف والتثقيل والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه طوال وطوال »[2]

وبعد هذا العرض لتلك الآيات التى تحوى هذه الصيغ وتلك الإسنادات ها نحن نقبل على الآيات جميعها وقد تحركت فى ثلاث جهات ، هى جهة الناس

---

(١) الكشاف ص ٣٠٣ - ٣ والظلال ص ٢٩٣ مجلد رقم ٥ يراجع .

(٢) يراجع فى ذلك الكشاف ص ١٦٤ - ٤ وأبو السعود ص ٤٠ - ٩ والشهاب ص ٣٥٣ - ٥ والظلال ص ٢٧١٦ مجلد ٦ .

لإلحاق الأذى والضرر بهم ، وجهة الرسل لمحاولة فل عزائمهم وإيقاف تحرك الجموع السائرة نحو الهدى والدين ، وجهة الله تعالى ونعمه الظاهرة والباطنة ومحاولة الاستهانة بها أو اختلاق واختراق ما يبعدها عن مصدرها الأصلى وهو الله تعالى .

ونبدأ بالجهة الأولى ، وهى جهة مكر الناس ببعضهم والآيات التى تسرى فى جنبات تلك الجهة آيات ست هى :

٣٣ من سبأ ، ١٢٣ ، ١٢٤ من الأنعام ، ٢١ ، ١٠٢ من يوسف ، ٤٥ من غافر .

وأربع منها من نوع واحد ومكر خاص والخامسة والسادسة من مكر يختلف فى شكله ولونه عن سابقيه .

فآية سبأ تكشف عن مكر الناس العصاة المتكبرين بمن هم دونهم فى الجاه والمال وكيف أنهم صدوهم عن الهدى ليل نهار وصباح مساء وآيتا الأنعام تصور أن صنيع الرؤساء مع عامة الناس وكيف أنهم يقللون لهم من شأن الدين ويحتالون عليهم لتركه وتهوينه ، وآية غافر تحكى كيف حاق المكر بأهله الذين أرادوا الفتك بالمخالف لهم والقابض على دينه .

أما آيتا يوسف فهما يخرجان المكر على صورة جديدة وإن التقت فى الغاية والهدف ، فالمكر فيهما مخلوع على صفات ذميمة منها الغيبة وإفشاء السر والغدر والكذب .

والآن إلى نصوص الآيات لنستجلى ما فيها من مضمون يعين على توضيحه بلاغتها وسياق نظمها : —

(أ) آية سبأ (٣٣) تقول « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

فواضح أن هذه الآية رد مرتبط بالاية قبلها التى قالت على لسان الذين استكبروا (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين)

وكان رد الذين استضعفوا بالإضراب والإنتقال إلى عين الحقيقة وطبيعة ما جرى بل مكر الليل والنهار ، ثم توضيحه وتفسيره ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . .

وبلاغة العرض فى الاية يتضح من أشياء منها : —

الإتيان بالمسند إليه القول ، اسم موصول وذلك حتى يتضح وصفه ويتعين أمره من صلته فوق ما ذكر وصرح به من سبقه بالمسند « قال » حتى يعرف القول وقائله وذلك لإشاعة معنى الهول ومحاولة التخلص من الجرائر والجرائم ولكن دون جدوى .

كما أن فى صيغة الصلة (استضعفوا - استكبروا) إشارة إلى أن الذين يستكبرون عن عبادة الله فى الدنيا سيصغر شأنهم فى الاخرة ويهابون العقاب ويحاولون التحلل مما جنته أيديهم .

كما أن فى الفعل (استضعفوا) إشارة إلى أن ذلك أمر اختلقه الناس فى الدنيا أما فى الآخرة فالكل سواء والكل يحاور ويجادل على قدم المساواة .

وكذلك فى الإتيان بالحرف (بل) للمفيد للاضراب والإنتقال وكأنهم

يقولون للمستكبرين : الجدير بالقول أن تحكى احتيالكم علينا وصدكم لنا عن الهدى آناء الليل وأطراف النهار .

وفى ذلك مقابلة جميلة بين إضراب المستكبر الكاذب حينما قال (أنحن صددناكم .. بل كنتم مجرمين) . أما عن إسناد المكر فى الآية إلى الليل والنهار فقد سبق تناوله وأنه من الإسناد المجازى إشاعة لاتساع وقت مكرهم بالقوم وكأنهم متفرغون لهذا المكر .

وزاد التركيب بهاء ورونقاً إشعاره المتأمل أن الإسناد جار كما يجرى بين الفعل وفاعله أو مفعوله مع أن الليل والنهار يلابسان الفاعل (الماكر) أو المفعول (المكور به) ومن الملابسة جيز الإسناد (١) . وهما ليسا بفاعلين ولا مفعولين على الحقيقة بل ظرفان لهذا المكر . والإسناد يحدث لأدنى ملابسه ، كما يقول البلاغيون

(٢ ، ٣) أما آيتا الأنعام ١٢٣ ، ١٢٤ فهما قول الله تعالى « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون .

فكلمة المكر وردت ثلاث مرات ، مرتين فى الاية الأولى ومرة فى الاية الثانية وفى ثلاثتها آتية بصيغة المضارع التى تحكى الحدث وتصوره وفى

---

(١) راجع فحاوى ذلك فى كل من الكشاف ص ٢٩١ ج ٢ وأبو السعود ص ١٣٤ ج ٧ والشهاب ص ٢٠٥ ج ٧ والظلال ص ٤٩٠٩ مجلد ٥ .

المرات الثلاث مسندة إلى العتاة فى كل قرية ، فى الأولين وقعت فى الدنيا كعمل وفعل وفى الأخيرة مسندة إليهم كبيان لسبب ماسيصيبهم فى الآخرة من هوان وقماءة فى الدنيا والآخرة ، وواضح من ذكر الآيتين أن أكابر القوم هم القائمون بالمكر بالناس وأنهم اغتروا بمالهم وجاههم فاستهانوا بالرسالة وظنوا أنهم على قدم المساواة مع الرسول الكريم المبعوث فيهم مع أن الأمر على خلاف ما يظنون وأن الرسالة إنما تنال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده ، كما يقول أبو السعود[1] ونلحظ فى تراكيب الآيتين مايلى :

١ ـ أن الجعل فى صدر الآيتين ، وكذلك جعلنا . . . ليس من باب الحتمية والفرضية[2] بل هو بمعنى التخليه والترك وعدم الكف للماكرين كما يقول الزمخشرى[3] .

وذلك كناية عن استدراج الله للماكرين وإملائه لهم دون إهمال بدليل قوله بعد (وما يمكرون إلا بأنفسهم) هكذا بأسلوب القصر وطريق النفى والاستثناء ، توكيداً وتثبيتاً لوقوع عاقبة مكرهم عليهم ونفياً لهم ولأمثالهم من أن يظنوا أن مكرهم لاحق وضار بغيرهم[4] . ولعل السر فى تنصيب الأكابر أنفسهم للصد عن دين الله والتعالى على أهله أن الدين هو الذى يجرد الأكابر من السلطان الذى يستطيلون به على الناس ومن الربوبية التى يتعبدون بها الناس ومن الحاكمية التى يستذلون بها الرقاب . ويرد هذا كله إلى الله وحده

---

(١) ص ١٨١ ج ٣ .

(٢) فقد يرد الجعل بمعنى الحكم الشرعى وبمعنى التصيير وغيره وهى هنا أقرب لمعنى أردنا . راجع مادة جعل فى اللسان وفى القاموس ص ٣٠٩ ج ٣ ط الحلبى .

(٣) ص ٤٨ ج ٢ .

(٤) الكشاف ص ٤٩ وأبو السعود ص ١٨١ ج ٣ براجعان .

رب الناس . ملك الناس (١) إله الناس .

٢ - أما قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته . . سيصيب . .) جملتان مستأنفتان وفيهما من النكير عليهم والتوبيخ لهم ما فيهما ، فليس أمر الرسالة رهن المال والجاه بل هو خاضع لمشيئة الله تعالى واصطفائه ، وتزيد الجملة الثانية (سيصيب الذين أجرموا صغار . . .) فى بلاغة استئنافها أنها تنعى على القوم وتجابههم بما سيلقونه من فنون الشر بعدما نعى عليهم حرمانهم مما أملوه كما أن السين المصدر بها الفعل واردة للتأكيد وإشاعة جو من التخويف لغيرهم من أمثالهم وممن اتصفوا بصفاتهم التى تحكيها صلة الموصول فى . . . الذين أجرموا . كما فى وضع الموصول موضع الضمير إشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح (٢) .

وفى إيراد هاتين الجملتين على صورة الاستئناف البلاغى مدعاة للتدبر فى تأكيد الله تعالى ومدى مقابلته برده الحاسم على أمنياتهم الفارغة وتخيلاتهم الجوفاء وصنيعهم السوء ، فهما جواب سؤال نشأ من قولهم : لن نؤمن . . إلخ . . (٣)

٣ - وفى الآيتين مقابلة بليغة تهز المتكبرين وتسخر من الماكرين وتجابههم بما سيؤل إليه حالهم فى الآخرة . يقول صاحب الظلال . . والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع والاستكبار عن الحق والتطاول إلى مقام رسل الله ، والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد والعداء للرسل والأذى للمؤمنين (٤)

---

(١) الظلال ص ١٢٠٤ المجلد الثالث .

(٢) راجع الكشاف وأبو السعود الصفحات السابقة .

(٣) راجع الشهاب ص ١٢٤ ج ٤ .

(٤) راجع الظلال ص ١٢٠٣/١٢٠٤ مجلد ٣ وكذا الكشاف ص ٤٩ ج ٢ .

وتختم الآيتان بما يبين عاقبة المكر ونهايته (بما كانوا يمكرون) أى سيلاقون هذه الأهوال فى الدنيا والآخرة بسبب مكرهم المستمر وحمل غيرهم عليه وصدهم عن دين الله وتطاولهم على أهله وذويه [١] .

٤ - أما آية غافر (٤٥) وهى قول الله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بهم وبآل فرعون سوء العذاب) وهى واضحة الدلالة فى كشف مكر وتدبير السوء من أهل المعصية ليكيدوا به أهل الطاعة .

والفاء فى مطلع الآية تفيد أن الله لاحقهم وأعقب مكرهم بهذا الرجل المؤمن ، أن وقاه وحفظه وفى صورة بليغة ، بأن رد مكرهم وأبطل حيلتهم بمكر وتدبير يليق بقدرته تعالى وإحاطته ، وذلك يتجلى مما ذكره أبو السعود أن القوم لما هموا بطلب المؤمن ليفتكوا به ، فر إلى جبل فأتبعه طائفة منهم ليأخذوه ، فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعباً إلى فرعون فقتلهم [٢] . وقيل أنجاه الله مع موسى عليه السلام [٣] .

والتعبير بقوله تعالى (سيئات ما مكروا) إشعاراً بشدائد مكرهم وما هموا به من أنواع العذاب بمن خالفهم [٤] .

وإسناد إحاطة سوء العذاب بآل فرعون دون التصريح بفرعون وإيقاع الإسناد عليه للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك . تخييبهم بإنزال العذاب على المؤمن خيبة وقلق لفرعون ، أو لأن فرعون أنزل بالقوم العذاب لما لم يفلحوا فى الإمساك بالمؤمن [٥] . كما أن هناك مقابلة بليغة

---

(١) راجع أبو السعود ص ١٨٣ ج ٣ .

(٢) راجع فى ذلك ما ذكره أبو السعود ص ٧٨ ج ٧ والشهاب ص ٢٧ ج ٧ .

(٣ ، ٤ ، ٥) راجع فى ذلك ما ذكره الكشاف ص ٤٣٠ ج ٣ وكذا أبو السعود والشهاب حول الآية فى الصفحات المشار إليها .

بين سوء ما مكر وسوء ما حاق بهم من عذاب الله ويزيد من بلاغتها كون ما مكروه ذهب هباء وما دبره الله أهلكهم وقطع دابرهم ومعه مكرهم .

(٥ و ٦) أما آيتا (٣١ ، ١٢) من يوسف فهما يحكيان مكراً من نوع غريب ولون جديد ولكن مع وجود بذرة قصد الأذى وإلحاق الضرر ، فإن كان المكر فيهما يعني : قول الغيبة أو إفشاء السر أو الاحتيال فى الذم أو الاحتيال لتحقيق البغية الخفية فى النفس (كما فى الآية الأولى) أو الاحتيال فى الكذب وحسن التخلص من الجريرة والفعل السيء (كما فى الآية الثانية) فإن ذلك دافعه إلحاق الأذى أو إخفاء الضرر الذى وقع مع محاولة التشويش والتخليط على المخاطب .

والآية الأولى (٣١) هى قوله تعالى حكاية لما صنعته امرأة العزيز رداً على نسوة المدينة لما لمنها فى حب يوسف (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) .

والآية (١٠٢) تحكى ما امتن به الله تعالى على سيدنا رسول الله من إيحائه إليه مالم يكن حاضره ولا معاصره (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ جمعوا أمرهم وهم يمكرون) .

أما الآية الأولى والخاصة بامرأة العزيز وسماعها بمكر النسوة فهى تتركز فى أمرين :-

الأول : أن المكر المذكور فى الآية مكر على حقيقته من احتيال وتخف فى إلحاق الأذى بها من جميع الوجوه المذكورة فى الآية ، يجمع ذلك العلامة

الرازى فيقول « وإنما سمى قولهن مكراً لوجوه : الأول أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن . الثانى : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً . الثالث : أنهن وقعن فى غيبتها والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر [١] .

الثانى : إن فى الآية حذفاً اكتفى المقام بذكر ما ينبىء عنه ويزيد أهميه وكشفاً لما وقع من أساسيات الأحداث ، وهذه عادة قرآنية فى قصصه تكسب الكلام ميزتين : الأولى : سرد وتتابع الأحداث المهمة لتترابط وتتآلف جسمة الأحداث ومعبرة عنها دون فرعيات أو تذييلات على حساب الأهم من الوقائع .

الثانية : شد انتباه السامع والمتلقى ليشارك بتخيلاته ومحاولة لم الأحداث إلى بعضها وتخيل ما يكون ساقطاً ومحاولة تمثله واستحضار دوره

يقول القرطبى « فى الكلام حذف ، أى أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه [٢] » .

أما الآية الثانية وهى الخاصة بتصوير ما صنعه إخوة يوسف به عليه السلام فهى تركز المكر الواقع فى أولاد يعقوب عليه السلام وتوجة المكر منهم إلى أخيهم تارة ، وإلى أبيهم على القول الثانى مع محاولة الإخفاء والتحايل فى الحالين

---

(١) لرازى ص ١٢٦ ج ١٨ ويراجع كذلك القرطبى ص ١٧٧ ج ٩ وأبو حيان ج ٢٠٢ مجلد ٥ والألوسى ص ٢٧٧ ج ١٢ .

(٢) القرطبى ص ١٧٧ ج ٩ وكذا الألوسى ص ٢٢٧ ج ٢١ .

يقول القرطبي « وما كنت لديهم - أي مع إخوة يوسف . إذ أجمعوا أمرهم - في إلقاء يوسف في الجب . وهم يمكرون - أي بيوسف في إلقائه في الجب . وقيل يمكرون بيعقوب حين جاؤوه بالقميص ملطخاً بالدم ، أي ما شاهدت تلك الأحوال ولكن الله أطلعك عليها [١] .

وبذلك تنتهي الجهة الأولى التي يتحرك فيها المكر من الناس إلى بعضهم وقد انتهت جميعها محكومة بأقدار الله وإرادته مع خلقه ، فلم يخسر في هذه الصفقات إلا الماكرون ، وأما الممكور بهم فلم يقع بهم إلا ما أراده ربهم من حفظ تارة أو أحكام إلهية تارة أخرى (كما حدث مع يوسف عليه السلام) ثم جلب له الخير العميم بعد ذلك ، وفي ذلك تحذير وتصوير واضح يبصر الماكرين ويردعهم من جانب ، ويطمئن الممكور بهم أو من يكونوا - في أي زمن - هدفاً للماكرين ، بأن كل ما ينزل بهم من الله ولو أحسنوا استقباله لأغدق عليهم من ألطافه ما يجلي كل غاشية وما ييسر كل عاتية .

أما الجهة الثانية ، وهي مكر الناس مع رسلهم ، وهي درجة أخس من سابقتها ، فكون المرء يمكر بأخيه ، هذه منقصة في عقله ودينه ، وكونه يمكر برسوله ومرشده ومنقذه فالمنقصة أكبر والداهية أعظم ، ولكن الإنسان هو الإنسان ، إن الإنسان لربه لكنود ، وهذه منزلة ، طالما وصل إليها فلا يتعجب معها إلى ما هو دونها .

وصورة المكر هنا ، مع الرسل ، عناد وتمسك بالضلال ، ثم كيد وتحريش على رسلهم ، ثم تفكير في قتلهم والفتك بهم ، ثم تحركهم الفعلي للقتل وإنهاء الرسالة والرسول .

---

(١) القرطبي ص ٢٧١ ج ٩ وأبو حيان ص ٣٥٠ مجلد ٥ والوسي ص ٦٥ ج ١٢

ولما كان كله سببه الكفر وطمس القلوب ، كان إطلاق المكر وإرادة سببه من قبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببيه .

والآيات الحاكية لهذه الجهة خمس عشرة آية ، يمكن ترتيبها كالآتى : ـ

(١) آيات تحكى بدايات المكر وأحاسيسه الأولى مع الأنبياء من كفر وعناد وصنيع سوء ، وهى ست آيات :

(٢) آيات تحكى تحريك مكرهم وتوجيهه إلى تأليب الناس وتحريشهم على رسلهم ، ولذلك آيتان .

(٣) آيات تحكى وصول المكر إلى منتهاه ، بحيث يدبر القوم للفتك والتخلص من أنبيائهم ورسلهم ولو كان بالقتل ، وآياته سبع .

وإلى المرحلة الأولى فى تلك الجهة : ـ

الآيات الست هى : ـ

(١) قول الله تعالى « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد » ٣٣ من الرعد .

(٢) قوله تعالى « وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » ٤٢ من الرعد .

(٣) قوله تعالى « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » ٤٦ من إبراهيم .

(٤) قوله تعالى « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد

خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ٢٦ من النحل .

(٥) قوله تعالى ، أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ٤٥ من النحل

(٦) قوله تعالى ، واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ١٢٨ من النحل .

والنظر فى نص هذه الآيات الست وما تكتنفه من تعبيرات ودلالات بلاغية يمكن تقسيم فحاواها إلى ثلاثة أقسام : -

الأول : ما يحكى أو يشير إلى طبيعة المكر وتلاقيه فى كل من : الماكر والمكور به والطريقة المتبعة فى المكر .

الثانى : خطورة وأثر مكرهم على النفس البشرية .

الثالث : تطمين الله تعالى لرسوله وتحذيره للمشركين ثم انتقامه منهم .

أما القسم الأول من هذه الفحاوى فيمكن توضيحه على النحو التالى :-

١ - المراد بالمكر فى الآية الأولى من الرعد والثانية تعنى الكفر والكيد[١] كفر بالله وكيد لرسله وصد للناس عن سبيل الله ، وتعنى فى صدر آية ابراهيم : التكذيب والمعاندة [٢] وفى آيات النحل الثلاث : بمعنى الكفر ومحاولة إبطال الإسلام والكيد لرسوله [٣] .

---

(١) أنظر القرطبى ص ٢٢٢ ج ٩ وكذا ص ٣٣٥ منه .

(٢) أنظر القرطبى ص ٢٨١ ج ٩ .

(٣) أنظر القرطبى ص ٩٨ ، ١٠٩ ج ١٠ والرازى ص ٢٠ ، ٢٨ .

وجلى أن الطريقة واحدة والماكرون هم هم على مر الزمان والمكور بهم هم أهل الله ومحبوه دائما . وهذا يجسد الصراع المحتدم ـ دوماً ـ بين الحق والباطل ويشعر بأهمية الاختيار الجيد ونبذ الهوى ومخاصمة أهله فى كل زمان ومكان .

٢ ـ فى الجمل القرآنية التى تحوى لفظة « المكر » التى هى بمعنى الكيد والعناد إشارات بلاغية مثل : كلمة « بل » فى آية (٣٣) من الرعد . وإيراد الموصول وطبيعة صلته فيها « للذين كفروا » ، وكذا سر التكرار فى لفظة المكر من آية (٤٦) إبراهيم « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم . . . » ثم متعلق الفعل فى آية (٢٦) من النحل « من قبلهم » فلفظة « بل » بمعنى دع واترك وهى إضرابية انتقالية حائة على عدم المبالاة بشركهم وكفرهم والاهتمام بما وقع فيه القوم من تزيين شيطانى لهم وإضلال وغى من الله لفرط عنادهم

يقول القرطبى : « أى دع هذا ، بل زين للذين كفروا مكرهم . أى ليس لله شريك لكن زين للذين كفروا مكرهم [١] » ، ويقول الرازى ناعياً على القوم « وذلك لأنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم فكأنه يقول دع ذكر الدليل فإنه لا فائدة فيه لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل [٢] » .

ويوضح الألوسى أن الله يريد حسم الأمر مع رسوله بعدم المبالاة بمقولة القوم فيقول « بل . . . إضراب عن الاحتجاج عليهم [٣] » .

---

(١) أنظر القرطبى ص ٣٢٢ ج ٩ .

(٢) ص ٥٦ ج ١٩ .

(٣) ص ١٦٢ ج ١٣ .

أما إيراد الموصول وطبيعة صلته معه ففى ذلك كما يقول الألوسى ، ذم لهم وتسجيل عليهم بالكفر ، كأنه قيل : دع هذا فإنه لا فائدة فيه لأنهم زين لهم مكرهم (١) ، وكان المقام مقام الضمير فجىء باسم الموصول لهذا الغرض البلاغى

أما سر تكرار لفظة « المكر » فى آية ابراهيم فذلك لقصد التهويل والتفخيم من شأن هذا المكر ، ولإعلام أن ذلك كله معلوم ومكشوف لله تعالى والتهويل آت من صرف هذا المكر إلى قوم سيدنا محمد ﷺ بدليل وأنذر الناس ـ قبله ، أى يا محمد وقد مكر قومك مكرهم ، وذلك المكر هو الذى ذكره الله فى قوله : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . . إلخ الآية ، ولا شك أنه لا أهول ولا أعظم من جناية كهذه الجنايات مع هذا الرسول الكريم (٢)

وأما إعلام أنه مكشوف وباطل أثره فمن قوله بعد ، « وعند الله مكرهم » أى جزاء مكرهم على أن فى الكلام حذفاً أو بدون حذف والمعنى حينئذ : مكتوب عنده تعالى مكرهم ومعلوم له سبحانه فيكون كناية عن مجازاته تعالى لهم (٣)

وأما دلالة متعلق الفعل « من قبلهم » فى قوله تعالى « قد مكر الذين من قبلهم » فهى ترشد إلى استدامة الطريقة وبقاء بدعة السوء سارية جارية على مر الزمان . يقول القرطبى « قد مكر الذين من قبلهم ـ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدمين فكانت العاقبة الجميلة الرسل (٤) .

---

(١) صـ ١٦٢ جـ ١٣ .

(٢) انظر الرازى صـ ١٠٤ جـ ١٩ .

(٣) انظر الألوسى صـ ٢٥١ جـ ١٣ .

(٤) صـ ٩٨ جـ ١٠ .

ويوسع من دائرة الماكرين وطبيعة المكر ، العلامة الرازى فيقول ، وفى المراد بالذين من قبلهم قولان :

الأول : وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ، وقيل فرسخان ، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء .

والثانى : وهو الأصح ، أن هذا عام فى جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين »[1] .

ونحن نميل مع الرأى الثانى الموسع للدائرة وإن كان التحقق من الكلام يجرى على ما سبق من وقائع مع الرسل عليهم السلام وما زال ممتداً .

أما القسم الثانى من الفحاوى وهو خطورة وأثر مكرهم على النفس البشرية فذلك مأخوذ من طريقين :

الأول : صراحة النصوص ، والثانى : دلالاتها وغيرها فى هذه الآيات فما صرح به الآية (١٢٧) من النحل (ولا تك فى ضيق مما يمكرون)) .

فالآية تخاطب صراحة رسول الله ﷺ وتحثه على إستخراج نفسه الشريفة من دائرة الضيق والألم من صنيع القوم لأن المعنى كما يقول القرطبى : لا يضيق صدرك من كفرهم[2] .

---

(١) ص ١٩/٢٠ - ٢٠

(٢) ص ٢٠٢ - ١٠ .

وكذا آية ابراهيم (٤٦) وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . على قراءة : (وإن كان مكرهم) بالنون ، كما يقول أبو حيان ، فيكون زوال الجبال قد وقع ويكون فى ذلك تعظيم مكرهم وشدته وهو بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها[١]

فهو بهذا أشد وقعا على النفس البشرية وفى توجيه الإرشاد لنبى الله بعدم الضيق والألم ، ونفسه من أصفى وأقوى وأشف النفوس لهو دليل صدق على أثر خطورة هذا المكر .

أما دلالات النصوص المكتنفة لهذه الكلمة والطريقة التى زرعت بها تلك الكلمة فى أرض الآيتين هاتين فإنها مشيرة إلى كثير من الأثر .

فى آية النحل (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) يلمح العلامة الرازى فى الآية قلباً معللا بأن الأصل أن يكون : لا يكن الضيق فى صدرك ، لكن قوله « ولا تك فى ضيق » فهذا لا يخرج إلا لنكتة بلاغية مؤثرة ومصورة لجسامة الضيق وأنه منه ﷺ بمثابة اللباس الساتر والثياب اللافف .

يقول الرازى : « ولا تك فى ضيق » هذا من الكلام المقلوب لأن الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك إلا أن الفائدة فى قوله « ولا تك فى ضيق » هو أن الضيق إذا عظم وقوى صار كالشىء المحيط بالإنسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به ، فكانت الفائدة فى ذكر الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى[٢] .

---

(١) ص ٤٣٨ مجلد ٥ .

(٢) ص ١٤٣ ج ٢٠

وبذا يكون التعبير خارجا مخرج الكناية التى ترمى إلى كبير أثر وشديد تأثر من صنيع القوم .

وأما نبت تلك الكلمة فى آية ابراهيم بين تأويلين مهمين فى الآية ليكشف عن مدى أثرها وتأثيرها على الجبال فضلا عن النفوس البشرية المحسنة .

والكلام عن « ان » ، « كان » قبل لفظة « مكرهم » ثم عن معنى ومراد كلمة « الجبال » بعد لفظة « مكرهم » ليكشف عن مدى خطورتها ووجوب التعوذ بالله منها

يكشف عن ذلك كله ما ذكره العلامتان القرطبى وأبو حيان

فالقرطبى يعنى بمعنى الحرف « إن » ومقصود كلمة « الجبال » فيقول :

(« إن » بمعنى « ما » أى : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه وفى الجبال التى عنى زوالها بمكرهم وجهان : جبال الأرض أو الإسلام والقرآن لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال[1] .

أما أبو حيان فيركز على الفعل « كان » وهل هو بالنون أو الدال فيقول (ومن قرأ بالدال « كاد مكرهم » فالمعنى أنه يقرب زوال الجبال بمكرهم ولا يقع الزوال ، وعلى قراءة (كان مكرهم) بالنون ، يكون زوال الجبال قد وقع ويكون فى ذلك تعظيم مكرهم وشدته وهو بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها)[2] .

---

(١) — ص ٣٨٠/٣٨١ج٣

(٢) — ٤٣٨ ط ٥

فبضم الكلامين وجمع الغايتين من التأويلين فيهما نجد أن مكر القوم لا يوصف بالوهن والضعف ويصير كلا مكر إلا عندما يجابهه مكر الله وتواجهه تدبيراته القاهرة ولكن فيما عدا ذلك، وعندما يريد الله لمكرهم أن يكشف عن سوئه وعتوه فهو مكر يقرب من أن يزيل الجبال الرواسي لولا سنن الله وكلماته فى ملكه، وعليه فنحن لا نعلي من شأن مكرهم ان صادف مكر الله، ولا نهون من شأنه إذا خلى بينه وبين الممكور به ولو كان فى ثباته كالجبال الرواسي. يدعم ما نحن بصدده ما عقب به العلامة أبو حيان قائلا : «ويحتمل أن يكون معنى «لتزول» ليقرب زوالها فيصير المعنى كمعنى قراءة كاد، ويؤيد هذا التأويل ما ذكره أبو حاتم من أن فى قراءة أبى : ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال (١).

وبالتأمل فى مكر كهذا فى تأثيره فى الجبال الرواسي فما بالنا بالنفوس الحساسة والمشاعر الرقيقة.

أما القسم الثالث والأخير من فحاوى هذه الآيات الست، فهو ما يتعلق بجانب الرد العملي من الله تعالى لرسوله الكريم على هؤلاء القوم : تطمينا لنبيه وتحذيراً لهم.

والمتأمل فى نظم الآيات الست يلحظ تطمين الله لنبيه وتهديده للمشركين العصاة.

فالآية الأولى من الرعد نلحظ قوله لرسوله (بل زين للذين كفروا مكرهم) وفيه تطمين له من ناحية ونعى على القوم من ناحية أخرى. والآية الثانية نلحظ فيها قوله تعالى (فلله المكر جميعاً) بأسلوب القصر المفيد للنفى والإثبات

---

(١) ص ٤٢٨ مجلد ٥.

فقد قصر وحبس المكر كله لله تعالى وحده ومن عداه لا يعد مكره مكراً .
وفى ذلك غاية التطمين والتسلية لرسوله الكريم من جهة وغاية الوعيد والتهديد للماكرين من جهة أخرى .

وكذا آية الرعد تشبه هذه الآية بأسلوبها القصرى (وعند الله مكرهم)(١)
أما آيات النحل الثلاث فكل آية تعتبر - وحدها - حاوية للأمرين معاً وبأسلوب ساخن وصريح .

فالآية (٢٦) تعرض التهديد فى صورة تمثيلية ناطقة ومؤكدة .

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

فصدر الآية يصرح بمكر القوم وعجزها ينتهى بلطيف مكر الله الذى حاق بهم وأتاهم من حيث يأمنون ولا يشعرون ، ثم يزيد فى صورة الهلع للقوم فيخرج الكلام كما ذكر المفسرون على سبيل التمثيل والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه . وقيل المعنى : أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه .

والجار والمجرور (من فوقهم) المتعلق بالفعل (خر) آت لدلالة قوية على أن القوم هلكوا بصورة مؤكدة ، وهلاكهم كهلاك من وقع فوق السقف فقتله .

والآية (٤٥) ترعب الماكرين وتذكرهم بما صنعه الله من خسف

---

(١) راجع هذه الآيات وتناولنا لها فى القسم الأول من هذا البحث .

بقارون ومثله . وتخرج لهم هذا المعنى فى صورة الاستفهام الإنكارى توبيخاً لهم وحثاً على معرفة الحق واتباعه . ثم تتوالى الآيات تهدد وقوعه بالخسف والعذاب الخفى المباغت فى تقلبهم أو فى تخوفهم وترقبهم .

والآية (١٢٧) فيها حث على الطمأنة (واصبر ـ ولا تك فى ضيق) وفيها طمأنه (وما صبرك إلا بالله ـ إن الله مع الذين اتقوا) .

أما الآيات التى تحكى تحريك مكرهم نحو تأليب الناس وتحريشهم على وسلهم فهما آيتان فقط ، قول الله تعالى (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) (١٢٣) من الأعراف . وقوله تعالى (ومكروا مكراً كباراً) (٢٢) من نوح

والآيتان تلتقيان حول إثارة الناس وتحريشهم على نبيهم ورسولهم بغية أن يقف ركب الدعوة وتتجمد حركتها وتموت الحياة فيها ، ويظل الناس عاكفين على عبادة الأصنام والأشخاص

وآية الأعراف يقوم بدور التأليب ، فرعون اللعين ليوقف حركة موسى عليه السلام فى دعوته إلى الله تعالى .

فتشنيع فرعون على نبى الله موسى يظهر من افترائه وتجنيه على توبيخ القوم الذين آمنوا بالله تعالى : بدليل هذا الاستفهام المجازى (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) فهو يقصد توبيخ السحرة الذين آمنوا وتقريعهم والتشنيع على صنيعهم ويكشف الاستفهام من جانب آخر وقع الصدمة ونزول الهول والمفاجأة على نفس فرعون نزولا جعله يستبعد أن يقع من السحرة ما وقع وذلك المعنى يحتث من فحوى الاستفهام الإنكارى الاستبعادى [1] فى صدر الآية

---

(١) راجع الآية وما قاله فيها الزمخشرى ص ١٠٤ ج ٢ وأبو السعود ص ٢٦١ ج ٢ والشهاب ص ٢٠٥ ج ٤ .

ومن هنا بدأ يحاول دفع هذا الكابوس بأشياء متعددة منها : —

هذا التوكيد المترابط المتعدد الأدوات (إن هذا لمكر مكرتموه) فالحرفان « إن واللام » واسم الإشارة المنصب على الواقعة نفسها ثم وصفه بالمكر ثم تكرير هذا الوصف وبصيغه الماضى الموغلة فى الوقوع والضعة .

وكذلك هذا التعليل الممجوج (لتخرجوا منها أهلها) والحيلة المهلهلة ، إذ كيف يستطيع موسى برجال معدودين أن يخرج أهل البلد من بلدهم ، وكيف يحكم هذا الحكم بمجرد أن آمن هؤلاء الناس ، وهو أمر يحتاج إلى عشرات السنين وقد لا يتحقق . ولكنه ما قالها إلا ليؤلب أهل المدينة على موسى وأصحابه . وكذلك وعيده وتخويفه (فسوف تعلمون) بقاء العاقبة والإبطاء فى زمن العقاب تمكيناً له فى اختيار ما يراه مناسباً . ثم صيغة المضارع المصورة لما سيحدث لتلازم مخيلات المخاطبين لعلهم يرجعون ، ثم كانت المفاجأة الكبرى وهى أن باءت تلك المحاولات بالفشل .

وهنا سؤال : علام يدل ذلك ؟ يجيب صاحب الظلال بأن ذلك دلالة غباء وجهل لهذا المتعجرف المتكبر المغرور

أما آية نوح (٢٢) فهى تحكى تأليب الرؤساء والكبراء فى القوم ، على نوح الله نوح ومحاولة صرف الناس عن هذا الدين الذى يدعوهم لنبذ الأوثان والأصنام والتوجه إلى عبادة الله الواحد الديان .

ولون هذا المكر تبلور فى تحريش الناس على نوح وتأليبهم عليه بحجة أنه سيصرفهم عن عادات آبائهم وعبادات أجدادهم . ولما كانت هذه الحجة فيها ما فيها من المواربة والتمويه الشديدين وصفت بأنها من المكر الكبار أى المتناهى ولكن أنى لضلال أن يغلب هدى .

---

(١) راجع الظلال ص ١٢٥٠ مجلد ٢ .

يقول صاحب الكشاف محدداً نوع القائلين والماكرين ونوع ولون مكرهم وغايته (والماكرون هم الرؤساء) ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل اليه والاستماع منه [١] .

ويكشف صاحب الظلال عما صنعه هؤلاء الرؤساء مظهراً سخافة صنعهم . ومكروا - لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها إلى قلوب الناس - . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التى تخبط فيها القوم . وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التى يسمونها آلهة . وقالوا (لا تذرن آلهتكم) بهذه الإضافة (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة فى قلوبهم وخصوصا من هذه الأصنام أكبرها شأناً فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها فى قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز [٢] .

وعن دلالة وصف المكر بالكبار يقول أبو السعود (مكراً كباراً - أى كبيراً فى الغاية ، وقرىء بالتخفيف والأول أبلغ منه وهو أبلغ من الكبير . [٣] .

ويقول صاحب الظلال (ومكروا مكراً كباراً) أى متناهياً فى الكبر [٤]

ويقول الزمخشرى (كبارا - وقرىء بالتخفيف والتثقيل ، والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه طوال وطوال [٥] .

---

(١) يراجع الكشاف ص ١٦٤ ج ٤ .
(٢) يراجع الظلال الصفحة السابقة .
(٣) يراجع أبو السعود ص ٤٠ ج ٩ .
(٤) يراجع الظلال الصفحة السابقة .
(٥) يراجع الكشاف الصفحة السابقة .

أما الآيات التى تحكى تدبير الفتك بهم ومحاولة التخلص منهم ولو بالقتل فهى آيات سبع : آيتان تحكى عن صنيع قوم صالح عليه السلام ، وآية تحكى عن صنيع قوم عيسى عليه السلام ، وأربع تحكى عن صنيع القرشيين مع رسولهم ﷺ .

والآيتان الخاصتان بسيدنا صالح فهما ٥٠ ، ٥١ من النمل وهما قول الله تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين)

ونلحظ فى سياقهما ما يلى :

جمال المشاكلة فى قوله تعالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا) وكيف تساوى وتقابل مكر الله مع مكرهم فى التعبير ووقوع الأحداث مع اختلافه فى القدر والطريقة وشدة البأس ودقة التخفى وعدم الإدراك بدليل الجملة الحالية المؤكدة لذلك (وهم لا يشعرون) .

كذلك جمال « الفاء » فى مطلع الآية الثانية (فانظروا)[1] وهى مشعرة بأن فعل الله الذى أعقب فعلهم يستدعى أن يستلزمه النظر ومحاولة تلمسه وتلمس آثاره التى أتت على القوم وقومهم دون أن يشذ أحد من الطىّ فى بطن الدمار .

وجمال الإستفهام المجازى الذى معناه الإعتبار والإرشاد واللفتة التى تدفع على الطاعة وتجنب الأهوال من المعاصى . أما موقع (انا دمرناهم)

---

(١) يراجع فى ذلك أبو السعود ص ٢٩١ ج ٦ والشهاب ص ٥٢ ج ٧ والكشاف ص ١٥٣ ج ٣

الخ الآية فهو إما على البدلية مما قبله فيكون المعنى فانظروا كيف حصل أى على أى وجه حدث تدميرهم منا ، وفى ذلك حث على ردع المخالفين مع تسليته ﷺ ، وإما على الخبرية لمبتدأ محذوف ويكون المعنى : هى تدميرنا إياهم وقومهم ، على أن الجملة بذلك مبينة لما فى عاقبة مكرهم من الإبهام ، وإما تعليل لما ينبىء عنه الأمر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار أى لأنا دمرناهم[1] .

والآية الخاصة بعيسى عليه السلام هى قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ٥٤ من آل عمران ، وفيها نلحظ المشاكلة الرائعة التى تكشف عن دقيق وخفى تدبير الله مع زيادة وصف مكر الله ووصف الله بالخيرية

فخيرية مكر الله آتية من كونه تعالى لا ظلم[2] ولا يوقع تدبيره لقصد كراهية أو تحقيراً وقصد سوء لمجرد السوء ولكن كعقاب وجزاء عادل وكدواء ناجع لو أحسن فهمه .

وفى الآية إظهار فى موضع إضمار للفظ الجلالة (والله خير الماكرين) وذلك لتربية المهابة[3] وإيقاظ المشاعر للتعلق بهذا الرب الإله إتقاء لغضبه واستمطار لفضله

ويحسن أن نذكر بأن الآية هذه تحكى ما دبره اليهود لقتل رسولهم عليه

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) ، (٣) يراجع فى ذلك الكشاف ص ٤٣٢ وأبو السعود ص ٤٢١ / ٤٣

السلام وكيف أن الله رفعه ووقع القتل بمن ذهب ليقتله[١]

إما الآيات الأربع اللاتي وردت في حق سيدنا رسول الله ﷺ فهي (٣٠) من الأنفال (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ، والآية (٧٠) من النمل (ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون) ، الآيتان ١٠ ، ١٣ من فاطر (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) ، (استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . . . الخ الآية) :

ونشير إلى أن هذه الآيات قد درست على وجه من البسط يخصوص ما تحويه من صيغ وإسنادات لكلمة المكر ، ولكنا هنا نجمعها لما فيها من عرض لقضية واحدة هي مكر القوم برسول الله مع أنه منهم وما جربوا عليه كذبا ولا فسقا . ونلحظ ما يلي :

آية النمل صدرها يعم الدعوة كلها وحرصه ﷺ على إيمان قوم وإسلامهم أما عجزها فيحكي تأثره من مكرهم وما يدبرونه من أذى ، فالله حافظه[٢] .

أما آية الأنفال فهي تحكي ما وقع من القوم في دار الندوة وما تآمروا عليه في حقه ﷺ ولكن الله كان له مكر وتدبير خيب آمالهم وأسقط في أيديهم فجدير بهم وأمثالهم أن يسخروا من مكرهم تجاه مكر الله[٣] .

---

(١) راجع ما ذكرناه حول هذه الآية في مطلع هذا البحث ص ٨ وما بعده .

(٢) يراجع الكشاف ص ١٥٨ ج ٣

(٣) يراجع الظلال ص ١٥٠١ مجلد ٣

أما آيتا فاطر فهما يخصان هذه المكرات الثلاث مع نعى على القوم وتمييزهم باسم الإشارة لتقريعهم وكونه للبعيد لفرط ضررهم وبعد منزلتهم فى العدوان (١) .

أما الجهة الثالثة والأخيرة فى هذه الآيات، فهى الجهة التى تحكى مكر الناس مع ربهم ولذلك آيتان هما : ٩٩ من الأعراف ، ٢١ من يونس .

وآية الأعراف هى قول الله تعالى (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) . وآية يونس هى قوله تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) .

وملاحظ من نظم الآيتين أن آية يونس هى التى أسند فيها المكر للناس أما آية الأعراف فلم يسند إلى الناس فيها مكر، بل أسند إليهم صنيعهم تجاه مكر الله وهو فعل غير محبوب ولا جدير بالورود آنذاك فكان فى غثاثة ردهم ومجابهة ذوقهم شبه كبير يجمعه مع مكرهم النفسى واحتيالهم المعوج حينما يواجهون قدر الله وحكمه وخيره وبره بشىء من الرد وإسناد الفعل إلى غير فاعله ، فقوله تعالى فى آية يونس (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) إعلام بأن ما تظنونه خافياً مطوياً ، لا يخفى على الله وهو منتقم منكم (٢) .

وقيل فى مكرهم إنه هو قولهم : سقينا بنوء كذا (٣) وقصدهم من ذلك أن الذى أسقاهم بعد جدب وأنزل عليهم المطر إثر قحط إنما هو النجم الفلانى وليس الله تعالى .

---

(١) يراجع أبو السعود ص ١٤٦ ج ٧ .
(٢ و ٣) راجع ما قاله الكشاف فى الآية ص ٢٣١ ج ٢ .

وبذلك يكون مكرهم هو احتيال فى دفع نعم الله وإسنادها إلى غيره وذلك كفر بالله تعالى .

لذلك ذكر ابن منظور فى لسانه ما قاله الزجاج فى أماليه وذكر قول النبى ﷺ « من قال سقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله » . وقال : ومعنى مطرنا بنوء كذا أى مطرنا بطلوع نجم وسقوط آخر وقال : وإنما غلظ النبى ﷺ فى ذلك لأن العرب كانت تزعم أن ذلك المطر الذى جاء بسقوط نجم هو فعل النجم وكانت تنسب المطر إليه ولا يجعلونه سقياً من الله (١) .

لذا كان من جميل ما كتبه صاحب الظلال ، هذه الكلمات ، حول هذا الذكر المذموم : —

« عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا فى ساعة العسرة ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة » ويضيف : « إذا لهم مكر فى آياتنا — كذلك إصنع قوم فرعون مع موسى ، فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه ، فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها وقالوا إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا — وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك فجاءت محمداً تناشده الرحمة أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فيما هى فيه (٢) » .

ومما تقدم يتضح أن الإنسان ، هذا المخلوق العجيب ، حينما لا تحفه الألطاف الإلهية ، أو ينزوى هو عنها ، يكون من أخطر خلق الله على

---

(١) راجع مادة نوء فى لسان العرب لابن منظور .

(٢) الظلال ص ١٧٧٣ ، ٢ المجلد ٣ .

مخلوقات الله ، يمكر بهم ويمكر لهم وعليهم ويثير الحفائظ ويحرك الدفائن ويبلغ مكره مداه فى القساوة والغباوة فيمكر بقدر الله ويرفض أثر الله فى ملكه ويحاول إسناد فعل الله لغير الله ، وصدق الله إذ يقول (إن الإنسان لكفور مبين) .

ندعو الله أن يهدينا لكل خير وأن يجنبنا كل مكر بالناس أو بالرسل أو بأقدار ربنا ، وأن نكون - دوماً - من أهل طاعته ووداده . آمين ؟

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد .

د / يحيى محمد يحيى

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط